سينما

«بلاك بانثر»: البطل أسود والرؤيا استشراقية!

سعيد محمد

لم تثر أيٌّ من أفلام «مارفيل» الـ 18 السابقة حماسة كبيرة في أوساط الأقليّات الأميركيّة ذات الأصول السوداء. وهذا الأمر مفهوم تماماً، فهذه الأفلام المتمحورة حول أبطال خارقين مستوحين من مجلات «الكوميكس» التي تصدرها «مارفيل»، كانت دائماً عن أبطال (ذكور غالباً) من ذوي البشرة البيضاء ينتمون إلى نخبة المجتمع، ويعيشون حياة باذخة بينما يملأون أوقات فراغهم في محاربة «الأشرار» بشخصيات منتحلة: «سوبرمان»، «باتمان»... إلى نهاية القائمة. لكن «مارفيل» مشروع رأسمالي محض. هي تقرأ الأرقام وتحولات أذواق الجمهور، وتعرف أن قاعدة جمهورها التقليدي (الأبيض)، لم تعد قادرة على إضافة أرباح أخرى من شباك التذاكر الذّهبي. بل إنّ آخر أعمالها ـ عن «سوبرمان» و«باتمان» ـ شهدت تراجعاً نسبيّاً في الإقبال مقارنة بأفلامها السابقة. لذا كان القرار التجاري المحض بالخروج من دائرة الجمهور التقليدي وتقديم أبطال من أنواع مختلفة: ديرديفيل (بطل من أصول فقيرة)، امرأة (المرأة الخارقة) والآن أفريقي أسود في «بلاك بانثر». وللحقيقة، فتلك المسلسلات والأفلام ـ رغم طبيعتها الجدليّة في المضمون الفكري ـ نجحت في إعادة شيء من ألق مفقود إلى صالات السينما. للمرة الأولى منذ عقد تقريباً، حُجزت العروض بالكامل، وكانت تجمعات المراهقين السود أمام دور السينما الأميركيّة استثنائيّة بكل معنى الكلمة.

الجمهور الأميركي الأفريقي الأسود، الذي ما زال ـ رغم كل التقدّم الشكلي ـ يخضع لهيمنة النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة ويعاني بشدة من التمييز العنصري والثقافي والاقتصادي، ويتعرض بشكل فاضح لعنف المؤسسة الأمنيّة الأميركيّة، افتقد على مر العصور إلى مصدر إلهام في مواجهة كل هذا القمع. لكنّه جمهور، لا سيّما الشباب منه ـ فقد الصلّة بجذوره الأفريقيّة ـ إذا استثنينا المهاجرين الجدد ـ وولد في ثقافة جديدة وتقمص لغة مغتصبيه. هكذا، لم يعد أفريقيّاً إلا في اللون. ولولا عنصريّة الأميركي الأبيض، لذاب في خلطة أميركيّة لا علاقة لها أبداً بأرض الآباء والأجداد المخطوفين ليعملوا عبيداً في مزارع الغرب. ولذا تلقف هذا الجمهور «بلاك بانثر» بحماسة نادرة: البطل الرئيسي أسود البشرة (شادويك بوسمان)، واسمه إيحاء بعلاقة مع الناشطين السود في الستينيات والسبعينيات، وطاقم التمثيل بأغلبيته الساحقة ذو أصول أفريقية، والقصة تتحدث عن أمّة يوتوبيّة أفريقيّة متقدّمة تكنولوجيّاً يمكنها التأثير على مستقبل العالم، والملابس والمشاهد يفترض أنها مستوحاة من تراث أفريقي. بل إن مخرج وكاتب السيناريو (رايان كوغلر) ورفيقه (جو روبرت كول) أميركيان أسودان. في أحد الحوارات التفسيريّة الطويلة في الفيلم، إشارات جريئة غير معهودة في أفلام «مارفيل» إلى اتهامات لأميركا بتنفيذ اغتيالات ضد القادة السود، والترويج للمخدرات ونشر الأمراض في المجتمعات السوداء والتزام سياسات تجاهل رسمي متعمدة تجاهها. كل ذلك كان للشبان الأميركيين الأفارقة بمثابة اعتراف أميركي متأخر بالأقليّة السوداء، ولو كان ذلك الاعتراف محصوراً في أرض الفانتازيا والأبطال الوهميين.

> نقلة نوعية لـ «مارفيل» في الوصول إلى أقليّة أهملت طويلاً في هوليوود

في الحقيقة، أنفقت «مارفيل» ثروة ضخمة على إنتاج هذا الفيلم وبذل طاقم تصميم المشاهد والأزياء والموسيقى، جهوداً غير عادية في تخيل ثقافة أفريقيّة مستقبليّة لا فضائيّة. كما أن المخرج كوغلر فنان أميركي من الدرجة الأولى، لا سيّما في الأعمال ذات المضمون السياسي . التاريخي كـ «كريد» (2015)، و«فروتفيل ستيشن» (2013)، وفيهما أبدع في إعطاء حلقات من التاريخ المنقضي حياة جديدة. لكن رغم نجاحه التجاري الظاهر، وشعبيته بين الأميركيين السود، إلا أنّ الفيلم عجز فكريّاً عن الخروج من النظرة «الاستشراقيّة» الأميركيّة تجاه أفريقيا والأفارقة. قدّم لنا أمّة «واكاندا»، المتقدمة تكنولوجيّاً على عالمنا المعاصر، بوصفها مجتمعاً قبليّاً، محكوماً بالخزعبلات الدينيّة، ويتقرر مصير الزعامة فيها ضمن حكم ملكي مطلق الصلاحيّات نتيجة صراع الأمراء، وتسعى للانعزال عن العالم من خلال تحكم قاس بالحدود، وتتورط قبائلها المتنازعة على النفوذ في حروب أهلية دموية وتتوظّف فيها التكنولوجيّات المتقدّمة لضمان استمرار هيمنة النخبة. تماماً كما لو كانت العربيّة السعوديّة وإن استُبدل بترولها لأغراض الدراما بمادة معدنيّة نادرة سقطت على «واكاندا» من الفضاء.

أمّا ذروة الصراع، فتتمحور حول السؤال: هل ينبغي لواكاندا أن تمد يدها للعالم على الأقل لتخليص ذوي البشرة السوداء من بؤسهم أم أن عليها أن تنعزل خلف أسوار عالية على النسق الترامبي؟

هذه الصورة الكسولة عن أفريقيا مستقبليّة وإن كتبها أميركي أسود، فهي رؤية أميركيّة لا تختلف عن سيناريو كان ليكتبه أميركي أبيض عن الموضوع نفسه. والاستعارات الثقافية الشكلية في الرموز واللغة والألحان والأزياء، تعاملت مع افريقيا كخلطة ما بعد حداثة لا معنى لها، لأن كل ناحية في إفريقيا بالطبع لها ثقافتها المستقلّة والمميزة التي لن تُرى بهذه السطحية سوى بعيون أميركيّة. ربما الاستثناء الإيجابي الوحيد هو في تقديم شخصية المرأة الأفريقيّة في هذا المجتمع الفانتازي بوصفها إنسانة قويّة، مستقلة وقادرة على لعب دورها، وإن كان ذلك في إطار النخبة الحاكمة حصراً كنموذج هيلاري كلينتون أو تيريزا ماي.

«بلاك بانثر» فيلم أبطال خارقين جيّد دون شك، ونقلة نوعية لـ «مارفيل» في الوصول إلى أقليّة أهملت طويلاً في هوليوود، لكن مضمونه الفكري لا يختلف عن أي فيلم أميركي آخر. فالمستشرق – بالمفهوم العام للنظرة إلى الآخر غير الغربي - يحدث أن يكون أيضاً ذا بشرة سوداء. اسألوا فرانز فانون!

Black Panther: «غراند سينما» (01/209109)، «أمبير» (1269)، «فوكس» (01/285582)

غياب

رحل كما عاش وديعاً محمد متولي... «بطاطا» الدراما العربية

عاش هادئاً عازفاً عن أضواء وضجيج النجومية، لم يثر في حياته أزمة، ولم يكن طرفاً في مشكلة، بل نادراً ما حل ضيفاً على برنامج تلفزيوني، أو حوار صحافي، ولم يضبط يوماً متلبساً بالتوسل أو التسلل إلى مساحة على الشاشة أو خارجها.

وكما عاش بهدوء، رحل محمد متولي (1945 ـ 2018) ليلة السبت الماضي بهدوء، يليق بحضوره خفيف الظل وابتسامته الوادعة، التي ميزت مسيرته الفنية الطويلة، منذ ظهوره الأول في فيلم «خللي بالك من زوزو» عام 1972، حتى آخر ظهور له في مسلسل «سابع جار» قبل أسابيع. ينتمي محمد متولي إلى فصيلة نبيلة من الممثلين، الذين أوتوا الموهبة والمهارة، ولكن حرموا التنعم بالبطولات المطلقة والنجومية التي يحظى بها عادة أصحاب الملامح الوسيمة والقوام الممشوق ولو كانوا بلا موهبة.

هذه الفصيلة تضم عدداً من أبرع الممثلين مثل زكي رستم، عبد الفتاح القصري، وصلاح منصور، القادرين على إثارة البسمة وإشاعة البهجة في أي دور يلعبونه، مهما كانت الشخصية جادة أو شريرة أو طيبة. هم يتسمون بملامح تتجاوز مفاهيم الأدوار الطيبة والشريرة التقليدية.

يصنف محمد متولي كممثل كوميدي، ولكن الكوميديا عنده لا تعتمد على المبالغات المعتادة في حركات الجسد وتعبيرات الوجه والصوت، أو النكات و«الايفيهات» اللفظية، بل على الأداء الطبيعي «الواقعي» المصحوب بلمسات تكاد تكون غير مرئية من «لزمات» تحدد صفات الشخصية التي يلعبها، قد تتمثل في إيماءات العيون الهاربة من المواجهة والجسد المنحني، كما في أدائه الشهير لشخصية حجازي الماكر والمتسلق، مساعد «حافظ» (يوسف شعبان) في مسلسل «الشهد والدموع»... أو تعتمد على الأناقة المفرطة، التي لا تناسب المكان أو طبيعة مهنته، في شخصية المحامي «حسن بطاطا» الذي يجمع الحماقة بالذكاء في مسلسل «أرابيسك».

بدأ محمد متولي في السينما. قدم عدداً من الأدوار الثانوية التي راوحت بين الطيبة والشر، المضحكة في كل الأحوال، كما في أفلام «سلام يا صاحبي» و«سارق الفرح» و«اشارة مرور». لكنه، مثل النجمين يحيى الفخراني وصلاح السعدني، عثر على المكان الطبيعي لموهبته وإمكانياته في التلفزيون، خاصة في أعمال الكاتب أسامة أنور عكاشة، الذي تميز بقدرة استثنائية على رسم شخصياته الثانوية بعمق وحيوية.

قدم متولي مع عكاشة 15 مسلسلاً، بعضها تكوّن من أجزاء عدة، مثل «الشهد والدموع»، «ليالي الحلمية»، «زيزينيا»، وغيرها... ومع عكاشة قدم عدداً من أدواره الأكثر تميزاً والتصاقاً باسمه، مثل «بسيوني» أو «بسة» صبي الباشا سليمان غانم، في «ليالي الحلمية»، أو المدرس الجشع مرتضى البشري في «أبو العلا البشري».

في معظم الأدوار التي لعبها، نجد خيطاً مشتركاً هو قدرتها على إثارة الشعور بالتعاطف مع الشخصية، ولو كانت شريرة. لعلّ هذا الخيط ينبع من شخصية محمد متولي نفسها، التي كانت تتسم بالطيبة والتواضع الشديدين.

هذا الخيط المشترك يعود أيضاً إلى طبيعة موهبته التمثيلية، فهو ينتمي إلى نوع من الممثلين أصحاب الحضور المميز والشخصية غير القابلة للتلون. يفرضون أنفسهم على أي دور يلعبونه، وغالباً ما تتم الاستعانة بهم في أداء أدوار بعينها. لكن محمد متولي استطاع عبر هذه الأدوار المتقاربة أن يرسم تنويعات وألواناً ودرجات ألوان تكشف عن احترافية واجتهاد كبيرين، من خلال التوظيف المقتصد والإيمائي لكل أدوات الممثل.

رحل محمد متولي، ولكن أعماله باقية في ذاكرة الدراما، وذاكرة الملايين من محبيه.

عصام...